فى الحيـــاة

للأستاذ السيد محمد زيادة

لست أكتب هذا لأكتب ؛ وإنما هى شكوى أطرحها هنا . . . أما طرفها الأول فهو أنا ، وأما طرفها الثانى فلا أدرى أهو شعورى المرهف لكل كبيرة وكل صغيرة تمرُّ به ، أم هو وجدانى المستوعب دائماً كلَّ ما فىّ وكل ما أنا فيه ، أم هو نفسى المتفتحة لكل ما ينتهى إليها من أمرها ومن أمر غيرها ! ! .

فأنى فى هذا الشعور بهذا الوجدان مع هذه النفس أعيش فى الدنيا كسفينة المستكشف عملها فى اليمّ أن تظل حائرة على وجه اليم فلا تكاد ترسو إلى شاطئٍ إلا لتنشد غيره ؛ ويتملك رأسى خيالٌ يقظ لا يهجع . ويقظة الخيال شقاء من الفن فهى شقاء فى كل مواقع الحس لكل نواحى الحس

وأرانى منكوباً بهذا الخيال مرزوءاً بهمّه ، ثم أرانى أحبه ولا أحيا بغيره . . . فكأنما أنا بين بليّتين فيهما مشكلتان لا حل لهما فلا نجاة منهما . . .

وأحس أننى قد قدر علىّ أن أعيش هكذا حتى أموت هكذا ؛ فما أستريح يوماً من سعى الخيال وراء ما يعنى ومالا يعنى ، ولا أقصر يوماً عن التفكير فى صوره التى يستخرجها من صور الحياة . أُترانى مقطوعاً من قمة جبل محطوطاً عند سفحه ، وأريد أن أرى وأنا عند السفح ما أراه وأنا فى القمة ؟ . . أم ترانى أخطأتُ إذ خلقتُ لتحتوينى الدنيا فظننت أننى خلقت لأحتويها ؟ . .

* * *

أمشى فى الطريق فأرى قصاباً غر بسكينه مرتين على رقبة ديك كبير ، ثم يقذف به بعيداً ؛ فيقف صامتاً تتدفق الدماء من عنقه ، وتزوغ عيناه فتارة تشخص إلى القصاب ، وتارة تتطلع إلى الصبية الملتفين حوله يشهدون مصرعه ، وتارة تنظر إلىّ وكأنها تقول كلاماً ، ثم يرقص الديك رقصة الموت إذ ترنّحه المنية ، ثم يرتمى على الأرض . . . فألقى عليه نظرة ساكنة ثم ألتفت عنه وآخذ سبيلى فاذا هى على غير ما كانت عليه ، وكأن الشارع بما فيه من سابلة وما يحفه من مبانٍ خلوةٌ هادئة فى وهدة غارقة بين نجدين . فأستعيد صورة الديك مضطرباً ثم مذبوحاً ثم هامداً فيخيل إلىّ أنه كان وقت ذبحه يقول : الآن قد آمنتُ بأننى ما خلقت إلا ليأكلنى من كان يطعمنى . .

ثم أغيب عن الوجود غيبة ، وأظل أفكر ويشغل بالى التفكير . وقد يستنفد هذا من وقتى ومن ذهنى ما أنا فى حاجة إليه لشؤونى

* * *

وأنطلق مع صديق لى إلى ناحية المروج فى نزهة خلوية فتقابلنا على الأرض نملة تسعى ، فيدوسها الصديق بقدمه عامداً إلى قتلها ؛ ولكنه يتركها تتلوى فلا هى بالحيّة ولا هى بالميتة ، فيشجر بينى وبينه شقاق فى الرأى حول فعلته . . . أريد أن أثبت له أنه مخطئ وأن الله لم يجعله على الأرض مبيداً للحشرات ، ويريد هو أن يثبت لى أنه مصيب وأن الله لم يجعلنى على الأرض مرشداً للناس . وبطول الخلاف بينى وبينه ، فلاهو مقتنع بأن عمله هذا قسوة ولا هو مقتنى بأن عمله هذا رقة ؛ فأضطر إلى السكوت على مضض وأمشى مشفقاً على النملة المتوجعة ، متألماً لطغيان القوة على الضعف ، متعجباً لاعوجاج معنى الحياة ، حاملاً من إشفاق وتألى وتعجبى ثورة على صديق . . . لقد ديستْ النملة وتحطمتْ وبقيتْ تتعذب حتى تموت فماذا جرى منها حتى تستحلّ ما جرى عليها ؟ . . وأين الرحمة ؟ أين الرحمة ؟

وأظل أتغيظ ويملأ الغيظ نفسى ، وقد يذهب هذا من مرورى ما أنا فى حاجة اليه لنفسى

* * *

ويصادفنى فى الطريق رجل كسير مسكين يترقرق الدمع فى عينيه ويكاد يطفر ، وتجول الحسرة الصامتة فى جبينه وتكاد تتكلم ؛ فتلتقى عيناى بعينيه فى موضع الفاقة من هيكله ، ثم يلتقى شعورى بشعوره فى موضع الألم من نفسه ... وأراه يتلفت عن يمينه وعن شماله متفرساً فى وجوه المارين به من الزوارق اللاهية بالصخرة الحزينة ، فأذهب أتصور نفسى بائساً بؤسه حائراً حيرته واقفاً ، وأمسك أتحرى فى مسارح شعورى ما كنت أقوله لنفسى وما كانت نفسى تقوله لى ... حتى أسمع فى وجدانى هذا الحديث : كنت أقول لنفسى : أنا جائع فهل من هؤلاء الناس السعداء من يعرف الجوع ؟ وهل منهم من يرده ؟ ... وتقول لى نفسى : أمسك على الطوى فليس بين الناس من يرجى ، وليس

غير الله من يُسأل ... فأقول لها وهل المحسن من الناس إلا يدٌ من الله تمد بالحسنة ؟ ... فتقول لي : يد الله لا تنتظر السؤال لتعطي ...

ويتمطط حديث الوجدان ويطول ، وأظل أتحسر ولا أستطيع إلا أن أتحسر ؛ وقد يستغرق هذا من وجداني ومن خاطري ما أنا في حاجة اليه لعملي

* * *

وأجلس في غرفتي مسهداً في هدأة الليل تشرف بي جلستي على دور ومن ورائها حقول ومن ورائها ما لا أرى ... فتذهب عيني إلى مسارب الفكر ، ويغوص فكري إلى أعماق الكيان . فماذا أجد هناك ، وما تحمل نفسي من هناك ؟ !

أجد هناك إرادة الحياة تغالب إرادة الموت فتتجاذبان روح الانسان ، والانسان بينهما عاجز لا حيلة له ، ضعيف لا قوة فيه ، مسخر لا رأي عنده ... وما تزالان تصطرعان حتى تهتديا إلى حل تصطلحان عليه ، هو أن يموت الانسان جزءاً من اليوم على قدر استعداده للخمود والموت ، ويحيا بقية اليوم على قدر استعداده للعمل والحياة ؛ وتتفقان على أن تسمى تلك الموتة اليومية الصغيرة بالنوم ، فيقال نام .... حتى تعافه الحياة فتتنزل عنه للموت فيقال مات ...

وتحمل نفسي من هناك كلمة الفناء ومعها كلمة الألم ؛ وأقول لنفسي : حقاً إن هذا الذي نسميه النوم ما هو إلا راحة أصغر من راحة ، فهو موت أصغر من موت ... يا عجباً ! ! أهكذا حُمل الموت على رقابنا حتى لم تخلُ منه الحياةُ نفسها ؟ ! أهكذا خُلقنا لنموت ونحيا كل يوم ثم نموت في يوم فلا نحيا ؟ ! ثم أقول : يا ويلتاه ... لن ألبث إلا قليلاً حتى أكون في عداد هؤلاء الأموات الذين تركوا الدنيا وما يزالون فيها .. فمنهم من يبعث ليأرق ثم يموت ، ومنهم من يبعث ليشرب ثم يموت ، ومنهم من تدخله موتته الصغرى في موتته الكبرى فلا يبعث إلا يوم الحشر ...

وأظل أتأمل وأتوزع بين التأملات ؛ وقد يشغل هذا من بصيرتي ومن إدراكي ما أنا في حاجة إليه لقلبي

* * *

وآوي إلى مضجعي قبيل الفجر مهدماً كالقادم من سفر طويل ، مكدوداً كالفارغ من عمل شاق ؛ وألقي برأسي على الوسادة ثقيلاً كالحجر ، ساخناً كالأتون ، ممتلئاً بما أفرغت فيه المشاهد والمشاعر من صور طول النهار ومعظم الليل ... وفيما أنا أستشعر الخلو ، وألتمس الاستقرار ، وأستكفي مخي عناء التفكير ، وأقنعه بضرورة الرقاد ... يطرق مسمعي صوت بوم ينعب ، وأنا لا أمقت كما أمقت البوم طائراً نافعاً أو ضاراً ؛ فأنهض من فراشي لا لأغلق النافذة دون ذلك الصوت الكريه البعيد فأزيد بعده أو أمده ؛ وإنما لأطل من النافذة فأقترب من ذلك الصوت الكريه البعيد فأسمعه جيداً لعلني أفهم غموضه فأفسره ...

وتمر من الليل فترة وما تكاد تنقضي حتى أجدني قد انقلبت عاطفاً على البوم واجداً في نعيبه جمالاً ولذة ؛ وما تغير هو حتى صار محبوباً ، وما تغيرتُ أنا حتى صرت أحبه .. ولكني إذ أفتح لسماعه آذان نفسي أسمعه كالمغني ، وإذا أفتح لغنائه آذان عقلي أتسمع فيه نداء المحب المشتاق للحبيب الغائب ...

وأظل ألقي على نفسي في أمر البوم ونعيبه وشؤمه السؤال بعد السؤال ؛ وقد يأخذ هذا من راحتي ما أنا في حاجة إليه لجسمي

* * *

وهكذا أراني منكوبا بهذا الخيال مرزوءاً بهمه ، حتى ليقودني إلى جنون شعري ثائر يفقدني لذة التمتع بمظاهر الكون وجماله في البحث عن حقيقة الكيان وأسراره

والعزيز علي هو أني لا أملك الخلاص من الخيال ، فأنا لا أملك الخلاص من هذا التعب — اللهم إن كان هذا من فطرة الشعر فلبئست الفطرة ، والخير منها فطرة الجمود والبلادة

إن من الناس أناساً يعيشون في هذه الحياة ليعيشوا فقط ؛ لا فكر في أدمغتهم ، ولا حرب في عقولهم ، ولا نصب في أفئدتهم ... كأنما خلقوا جسوماً بغير قلوب ، ولكنهم سعداء لأنهم يشعرون بأنهم سعداء !!

أريد أن أجرب هذه السعادة فأطرح هموم الخيال ، وأنسى خيال الهموم ، وأعيش بظاهر ما أرى .. أريد أن أفهم ولو يوما واحداً أنني سعيد وإن فهم الناس في ذلك اليوم أنني شقي

(طنطا) السيد زيادة